المحاضرة رقم4

مناهج المدارس النحوية العربية القديمة

الاختلاف، الترجيح

تمهيد:

يعود الاختلاف الحاصل بين المدارس النحوية العربية القديمة في كثير من المسائل النحوية إلى المنهج المتبع أثناء مرحلة التقعيد، خاصة المنهج الذي انتهجته المدرسة البصرية في بدايات وضع قواعد النحو العربي، كما أن للعوامل التي ذكرناها من قبل تأثير واضح في ذلك، إلا أن لطريقة جمع اللغة و أسلوب الاستقراء والاستنباط الذي انتهجته المدرسة البصرية سبب في ظهور مناهج أخرى وطرق وأساليب تختلف عما عهدته البصرة، وهذا ما نجده عند نحاة الكوفة، الذين عرفوا بأسلوبهم ومنهجهم الذي لم يوافق منهج البصرة في كثير من مواطن البحث في الظاهرة النحوية.

ولعل هذا أيضا مما جعل نحاة بغداد الجدد ينتهجون أسلوب الانتقاء والانتخاب بين المذهبين، وهو ما جعل نحاة الأندلس يلجاؤون الى الدعوة إلى تيسير النحو وهكذا.

أولا الوضعية:

1- الاستقراء و التقعيد:

إن الاستقراء والتقعيد من أهم طرق الوصف في دراسة اللغة، إضافة إلى التقسيم والاصطلاح ولا يكون هذا الا بعد دمج المادة التي تجري ملاحظتها، واذا رجعنا الى تاريخ الدراسات اللغوية العربية لم نجدها تحيد كثيرا عن هذا الطريق، أما جمع المادة واستقراؤها وتقسيمها وتسمية أقسامها ومفاهيمها، ثم وضع القواعد التي تصف جهات الشراكة بين المفردات، فقد تم وضع القواعد التي تصف جهات الشراكة بين المفردات، فقد تم كله على نحو يثير الإعجاب، وقد بذل فيه من

الجهد ما سوف يظل أثره ملحوظا أبد الدهر، و لقد كان الرواة يرحلون الى الصحراء فيلقون الأعراب و يجمعون عنهم النصوص ويروون لهم الأحاديث، ثم يعودوا الى البصرة أو الى غيرها من المراكز الثقافية، فيعلمون ذلك للناس[1]

كان النحويون يسعون وراء الشعر الذي يمكنهم من استكمال استقرائهم لكلام العرب، ولقد تم تقعيد القواعد النحوية و الصرفية في اللغة العربية في عصر بدأ بأبي الأسود الدؤلي وانتهى الى سيبويه[2].

وكان النحاة يتخذون أحدهم أستاذا ويأخذ هذا الأستاذ بدوره عمّن يحسن به أن يتعلم منه، كما فعل ابن مالك، على أن هذا الأخذ لم يكن شبيها بأخذ الأقدمين عن الرواة لينشؤوا لأنفسهم منهجا وصفيا للغة، وإنما كان تلقيا لبعض الآراء في فروع المادة، مبنية على أفكار معيارية ، لا على استقراء و استنباط.[3]

ثانيا /المعيارية:

جاءت هذه المرحلة بعد أن كانت دراسة اللغة تدور في بداية الأمر على تلقي النصوص من أفواه الرواة، ومشافهة الأعراب وفصحاء الحاضنة، فكان ثمة مجال للاستقراء واستنباط القاعدة من تقصي سلوك المفردات والأمثلة، ورأينا أن الدراسات العربية الأولى تتسم بالوصف، وتأتي عن المعيار ثم وضع حد فاصل انتهى عنده عصر الاحتجاج.

[1] تمام حسان: اللغة بين المعيارية و الوصفية، ص 158، 159

[2] المرجع نفسه، ص 120

[3] المرجع نفسه، ص 127

وجاء وقت كان الرواة عنده أفرغوا ما في جعبتهم، وجفت روافد الرواية فوجد النحاة أنفسهم وجها لوجه أمام تجربة جديدة[1]

فقد فكر النحاة في اللغة تفكيرا يخضع للصواب و الخطأ في استعمالها لمجموعة من القواعد إما شاذا أو خطأ ينبغي ألا يدخل في دائرة الاستعمال العام، ومن ذلك نظرة النحاة الى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَان لَسَاحِرَان﴾[2]؛ حيث جعلوا الشاهد شاذا لعدم التوفيق بينها وبين قواعدهم، ولطالما التمسوا التخريجات المختلفة سواء كانت منطقية أم دينية أم غير ذلك. خاصة إذا ما تعلق الشاهد بالقرآن الكريم.[3]

يمكن إذا أن نفرق بين نوعين من أنواع الدراسات اللغوية أو المناهج التي سلكها النحويون «أحدهما هذا الذي يعمد الى اللغة فيتخذها مادة للملاحظة، والاستقراء، والوصف، ويجعل نواحي الشبكة فيما وقع عليه الاستقراء قواعد،...تفهم باعتبارها تغييرات عن الوظائف اللغوية التي تؤديها الوحدات اللغوية التي وقع عليها الاستقراء، و أما النوع الثاني من الدراسات اللغوية فهو ذلك الذي يغلب القاعدة على النص، فيجعلها قانونا جتميا يجب احترامه و طاعته »[4]

إن المنهج الذي سار عليه العلماء الأوائل أفرز كثيرا من الخلافات في مسائل النحو، سنبين تفاصيلها خلال المحاضرات اللاحقة.

---

[1] تمام حسن: اللغة بين المعيارية و الوصفية، ص 44

[2] سورة طه: الآية 63

[3] تمام حسان : اللغة بين المعيارية و الوصفية، ص 26

[4] المرجع نفسه، ص 31